مقاهي بيروت القديمة، ذاكرة المدينة النابضة

زهير دبس

تعتبر المقاهي روح المدن وانعكاساً لهويتها الثقافية، وقد عرفت مدينة بيروت على مر تاريخها، عدداً كبيراً منها، حظي القديم كما الحديث منها باهتمام الباحثين الذين أجمعوا على تنوع وظائفها، وخاصة تلك التي تقع ضمن المجال المديني.

نستعرض في هذه المقالة بعض المقاهي القديمة التي كانت تنتشر في عدد من المناطق في مدينة بيروت، ومعظمها يعود تأسيسه وإشغالاته إلى نهايات القرن التاسع عشر وبدايات القرن العشرين.

مقاهي تقليدية يملكها القبضايات

تميزت المقاهي البيروتية القديمة بطابعها الشعبي، وبروادها متنوعي الجنسيات والأطياف التي كانت تفد إليها من مختلف البلدان والمناطق من أجل العمل والعيش، بحّارة وريّاس ميناء وتجار وباعة وسماسرة ومثقفون وشعراء وسياسيون، ومن خصوصياتها أنها كانت مقاهي تقليدية لا يُسمح للنساء بالدخول إليها، يُقدّم فيها الشاي والقهوة والنرجيلة، وبعض الأطعمة الخفيفة، ولم تكن المشروبات الكحولية موجودة في معظمها. أما وسائل التسلية فكانت عبارة عن لعبة الداما وطاولة الزهر. يتجول قرب معظمها باعة سجائر (دخنجي) أو (تنبكجي) وغالبية ملاّكها من البيروتيين الذين عرفوا بالقبضايات.

لسان المدينة وحالها السياسي والثقافي

لم تكن المقاهي القديمة في بيروت مساحة لتزجية الوقت والتسلية فحسب، بل كانت للمدينة بمثابة اللسان الناطق الناقل بأفكار مثقفيها وفنانيها وتجارها وأهل السياسة، في زمن لم تكن بعد توافرت فيه أية وسيلة سمعية أو بصرية. ورغم أن إشغالات معظم المقاهي كانت متشابهة، إلا أن أعمال الذاكرة تبين أن لكل منها خصوصية ميّزتها عن غيرها، أشهرها مقهى "فاروق" الذي كان يقع في ساحة رياض الصلح، وتميّز بأنه مقهى النخبة. من زبائنه السيد عبد النبي حمادة، ومحمد عمر منيمنة، والشيخ عبد الحليم بدير المصري الواعظ والداعية المشهور في زمنه، والشيخ جميل الحسيني المدقة شيخ الطريقة الصوفية الرفاعية.

اشتهر "فتوح" بأنه كان مقهى ثقافياً بامتياز، يقصده الشعراء والأدباء من كل حدب وصوب. من بينهم الشيخ أمين تقي الدين، وجبرائيل نصار، وكان رواده ينتظرون بشغف حامل الفونوغراف الذي كان يضع صندوقه في وسطه ويدير أغنية عبد الوهاب التي شاعت آنذاك "جفنه علم الغزل"، بحضور مؤلفها الأخطل الصغير. شاع عن المقهى تضخيم الأخبار والطرائف، من بينها ما روي عن "محمد كامل شعيب العاملي، بطربوشه النازل على أذنيه وشعره المرسل على كتفيه، أنه نظم في ليلة من الليالي، ١٤٣ بيتاً من الشعر الموزون المقفى في محاسن الخيار المكبوس.

من المقاهي التي طارت شهرتها في أنحاء البلاد، "مقهى الحاج داوود" الذي كان مثبتاً على أعمدة فوق مياه البحر، وكان مصنوعاً من الخشب، وقربه يقع مقهى "البحرين". والمقهيان المذكوران كانا مقصداً لطالبي الأجواء الهادئة، بعيداً من ضجيج المدينة. اشتهر "مقهى الحاج داوود" بزواره الدمشقيين الذين كانوا يأتون إليه بكثافة كل يوم جمعة. كما كان "مقهى البحرين" ملتقى أهل السياسة والفن، أبرزهم الرئيسان سامي الصلح وعبد الله اليافي، والخطاط سعيد سينفي، أول من أدخل النيون إلى بيروت، ومن رواده الدائمين أيضاً الفنان التشكيلي مصطفى فروخ، الذي كان لكل من المقهيين المذكورين نصيب من لوحاته.

مطابخ انتخابية ومسارح ونوادر

كان مقهى "أبو عفيف" يقع تحت مقهى "كوكب الشرق"، ويعود تأسيسه إلى بدايات القرن العشرين، ويقدم إلى جانب القهوة أنواعاً من المأكولات كالفول والحمص. كان يُنظر إليه على أنه "مصيوط"، أي ذائع الصيت لما يشاع عنه من أنه كان مطبخاً للسياسات الانتخابية. معظم رواده من الصحافيين والسياسيين والفنانين ومن بينهم صبري حمادة وأحمد الأسعد وأحمد الصافي النجفي وجبران تويني وألبير أديب وملحم كرم وعوني الكعكي، والفنان المصري يوسف وهبي، والأخطل الصغير الذي نظم فيه قصيدته الشهيرة "يا عاقد الحاجبين".

في الليل كان مقهى "أبو عفيف" يتحول إلى شبه مسرح يقصده الفنان عمر الزعني ويلقي فيه مونولوغاته التي تميزت بالسخرية اللاذعة، ومما نظمه في إحدى الليالي عن صاحب المقهى: "أبو عفيف شب نضيف/ شب ظريف/ عند الحساب يا لطيف يا لطيف".

من النوادر التي شاعت عن المقهى أنه تسبب في انهيار مقهى "كوكب الشرق"، لأن "أبو عفيف" صاحب المقهى بالغ في حفر الأساسات فحدث ما حدث. من يومها شاعت الأغنية الشهيرة: "مش معقول مش معقول، يهد الكوكب صحن الفول".

يبدو أن الشعر والشعراء في ذلك الزمن القديم كانوا يشغلون ليل المدينة ونهارها، وما تحفظه الذاكرة عن مقهى "أبي متري" الذي يقع في ساحة البرج، أن صاحبه أيقظ في نهاية إحدى السهرات الشعرية التي امتدت حتى ساعات الصباح الأولى، الغارسون الذي كان نائماً على كرسي وقال له: "قوم يا صبي كنس أشعار".

أما المقاهي التي كانت تقع في المناطق الداخلية فلها روادها أيضاً، من بينها قهوة البسطا التحتا، التي نظم فيها شحرور الوادي قصيدته الزجلية المشهورة: "بسطة التحتا يا بسطتي/ فيها بقضّي بسْطتي/ وفيها بمد بسطتي"، فيما كان مقهى البسطا الفوقا يستضيف الحكواتي الذي يقدم فيه مسرحية "خيال الظل".

وظائف تواصلية

تعددت وظائف المقاهي في مدينة بيروت ذلك الزمن الذي لم تكن فيه وسائل النقل حديثة بعد. وكان عدد منها مثابة صلة وصل بين أهل المدينة والمناطق، أشهرها "قهوة القزاز"، التي تقع في ساحة البرج، ويعود تأسيسها إلى العام ١٩٢٦، وكان يطلق عليها "الأجاز" تحبباً باللهجة البيروتية. اكتسبت القهوة تسميتها من الشبابيك الزجاجية التي تعلو واجهاتها، حيث يرصد الرواد فيها حركة الشارع وهم يجلسون على كراسيهم. كانت "القزاز" ملتقى أبناء بيروت والجبل من الموظفين والعاملين في مختلف القطاعات الذين يتلاقون فيها بعضهم مع بعض قبل العودة بالبوسطات مساءً، انطلاقاً من كاراجات ساحة الدباس أو كاراجات البرج والصيفي .

مقاهي للبحارة وتجار الطيور

من المقاهي التي كانت مقصداً لأصحاب مهن محددة، مقهى "زهرة سوريا" الذي يعود تأسيسه إلى العام ١٩١٠، وجلّ رواده من رياس الميناء وبحارة الزوارق الذين كانوا ينقلون الركاب من البواخر وإليها، قبل إصلاحات التوسعة والتعميق التي جرت لمرفأ بيروت. فيما تعود خصوصية "مقهى قدورة" إلى أنه كان ملتقى تجار الطيور، الذين يقصدونه لتبادل وبيع أنواع الحمام المؤصل. كما اشتهر "مقهى الجمهورية" الذي يقع في ساحة الشهداء برواده من هواة سبق الخيل ولاعبي البليار.

هي بيروت، التي لم تكتفِ بتاريخ واحد وقصة واحدة، كذلك هو حال مقاهيها القديمة التي خبأت لنا الكثير من الأخبار والنوادر والحكايات والقصائد واللوحات، التي لا زالت تعبق في الذاكرة.

المراجع:

- "بيروتنا" عيتاني وفاخوري ١٩٩٥.
- "بيروت في البال" رياض جركس ١٩٩٦.
- كلود أبو شقرا، السفير، ٢٨/ ٥/ ١٩٩٩، العدد ٨٣٠٦.
- صفحة تراث بيروت.

fb.com/BeirutHeritage